الفصـل الأول

خليل السكاكيني
هذا المثقف الموسوعي الملتزم

عبد القادر ياسين

هل يمكن الإشارة إلى أي من الحركة الوطنية، أو الحياة الثقافية، أو التربية في فلسطين دون أن يحتل ابن القدس، خليل السكاكيني، موقعه المتقدم في هذه المجالات الثلاثة؟! فهو «الحجر الأساس في تشكيل الوجدان الأدبي واللغوي لأجيالٍ متعاقبة، فضلًا على القيم التربوية والأخلاقية التي أشاعها فعززت مفهوم النزاهة، كموقف، والذي بدونه تتحول القضية الضميرية إلى اجتهادات تبريرية للسلوكيات المنحرفة، وتحييد الالتزام بالركوب مع الموجات الانتهازية، والوصولية. والذي لم يدَّخر السكاكيني جهدًا في فضحها، وتعريتها، وخاض مع رموزها أعنف المعارك، وأصدقها». بكلمات الأديب الفلسطيني المعاصر المعروف، نواف عبد حسن.

غني عن القول أن للمربي «السكاكيني» على طلاب فترة الانتداب البريطاني في فلسطين (١٩٢٢-١٩٤٨) الفضل الأول في تكوينهم اللغوي، فعلى كتب «القراءة الرشيدة» للسكاكيني تعلَّم طلاب ذاك الزمان الكتابة والقراءة، وأجادوا قواعد النحو والصرف.

لقد ألـمَّ هذا المثقف الموسوعي الوطني الديمقراطي بفروعٍ شتى للمعرفة، وشهر الثقافة سلاحًا في وجه أعداء الأمة.

هـويتـه

ولد خليل السكاكيني في عاصمة فلسطين، القدس، في ٢٢/ ١/ ١٨٧٨، قبل نحو أربعة عقود من إخلاء الحكم العثماني موقعه في فلسطين للاحتلال البريطاني (١٩١٨).

أرسله والده، قسطندي السكاكيني، إلى مدرسة الروم الأرثوذكس، لكن الفتى قاطعها، احتجاجًا على لطم مدرس السكاكيني على وجهه لغير ذنب جناه. ومن هذه المدرسة التحق السكاكيني بمدرسة أسستها، في القدس، جمعية (CMS). وحرص صاحبنا على المرتبة الأولى طوال سني دراسته في هذه المدرسة.

كان ممتلئًا يميل إلى القصر، يتدحرج في مشيته كالكرة، يعلوه شعرٌ أحمر طويل، ضفَّرته له والدته.

شغف صاحبنا منذ صغره بتربية الخراف، واقتناء الكلاب، كما ولع بالماء، والنظافة، والعبادة، قبل أن يتعلق بالصيد، فضلًا على العزف على الكمان.

في مدرسة (CMS) أنهى السكاكيني الدراسة الابتدائية، فالتحق بمدرسة صهيون الإنجليزية بالقدس، ومنها التحق بكلية الشباب (الكلية الإنجليزية، لاحقًا). حيث تتلمذ على يدي الأستاذ نخلة زريق، وتخرج في تلك الكلية سنة ١٨٩٣، حيث مارس مهنة التعليم في القدس، وانتسب إلى «جمعية زهرة الآداب». وكاد يسافر إلى روسيا لتعلُّم الطب، لكنه عدل عن السفر في اللحظة الأخيرة.

بعد وفاة والده توجه الفتى إلى بريطانيا، ومنها انتقل إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٠٧، حيث أقام في نيويورك، وإن حال ضيق ذات اليد دون تمكن السكاكيني من استكمال تعليمه، فعمد إلى إعطاء دروس خصوصية لبعض الطلاب هناك، كما عمل ـ في الوقت نفسه ـ في محل تجاري، ومن بعده، عمل محررًا في مجلة «الجامعة»، التي كان يصدرها فرح أنطون. وما أن صدمته أخلاق الأمريكيين القائمة ـ كما يقول ـ على «الغش، والخداع، والكذب، إلى غير ذلك من الصفات التي تأباها نفسي، ولو متُّ جوعًا»[1]، على ما يقرر السكاكيني نفسه في يومياته، حتى اندفع اندفاعًا للعودة إلى أرض الوطن، وقد شجعه على هذه العودة إقدام السلطان العثماني عبد الحميد الثاني على منح البلاد دستورًا، صيف ١٩٠٨، تحت ضغط انقلابيي «الاتحاد والترقي».

أولى السكاكيني جُل اهتمامه لإصلاح أوضاع الطائفة الأرثوذكسية في فلسطين، غير عابئ بتصدي وجهاء الطائفة له. وقد التحق السكاكيني بجمعية «الاتحاد والترقي»، توهمًا منه بأنها جمعية ديمقراطية، قبل أن يفتضح وجهها الشوفيني الطوراني، وينفض العرب من حولها، ليكوِّنوا جمعياتهم السرية، وليطوِّروا شعارهم الرئيسي من الإصلاح إلى الاستقلال الذاتي، قبل أن يصلوا إلى شعار الاستقلال التام.

أسس السكاكيني سنة ١٩٠٩ «المدرسة الدستورية»، لتكون «مصنعًا للرجال»، وشاركه في جهوده هذه كل من: علي جاد الله، وجميل الخالدي، وأفتيم، حين كانت «أكثر من مدارس هذه الأمة أجنبية دينية، ومدارس الحكومة... لا تزال عرضة لسوء الاستعمال». وفي المدرسة الدستورية ركز السكاكيني على اللغة العربية، بهدف غرس الروح الوطنية، فعنده أن أكبر عامل «في إيقاظ الشعور الوطني هو أدبيات اللغة. والمعلِّم الوطني لا يعدم من أدبيات اللغة العربية ما يثير الحماسة في نفوس التلاميذ، ويبعث فيهم الحياة. إن أمة عندها أمثال المتنبي، وأبي فراس، وأبي تمام، والبحتري، وأبي العلاء، وعنتر، لا يمكن أن تموت[2].

حين أسس القائد العثماني الشهير، جمال باشا السفاح، المدرسة «الصلاحية» في القدس، عهد بإدارتها إلى رستم حيدر، وعيَّن السكاكيني مدرسًا فيها.

خلال احتدام معارك الحرب العالمية الأولى بين العثمانيين والإنجليز أقدمت السلطات العثمانية على إعدام قادة الحركة الوطنية السورية، واعتقال العشرات من الوطنيين، ومن بينهم خليل السكاكيني (١٩١٧)، وقد أودعته عمارة الروس بالقدس، قبل أن تبعده مخفورًا إلى دمشق، أما التهمة فكانت إيواء اليهودي والتر ليفين.

بذل وجهاء فلسطين جهودًا مضنية، وفي مقدمتهم الشيخ عبد القادر المظفَّر، فأفرج عن السكاكيني بكفالة مالية في ١٠/ ١/ ١٩١٨، ليمتهن إعطاء الدروس الخصوصية في اللغة الإنجليزية لطلاب دمشقيين. وبعد برهة تمكن من الإفلات من رقابة العثمانيين في دمشق، وانضم إلى «الثورة العربية الكبرى»، قبل أن يتوجه إلى مصر، ويطل على حركتها الثقافية، ويلم بطموحات شعبها الوطنية.

بعد أكثر قليلًا من عام واحد على احتلال القوات البريطانية للقدس (٨/ ١٢/ ١٩١٧) عاد السكاكيني إلى مسقط رأسه، وشرع في إعطاء دروس خصوصية إلى طلاب هناك، قبل أن يبدأ في تعليم ثلاثة صفوف من الضباط الإنجليز اللغة العربية، بتكليف من مدير المعارف الإنجليزي في فلسطين، آنذاك، الميجور تدمن.

في الوقت الذي اعتمدت القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية خطًّا سياسيًّا قُطريًّا، فإن السكاكيني تمسك بإيمانه بالوحدة العربية. كما نفر من احتكام تلك القيادة للاحتلال البريطاني في الصراع العربي ـ الصهيوني، وفي عداء تلك القيادة لليهود كدين، وفي اعتماد أساليب كفاح سلبية متواضعة، لا تتعدى المؤتمر، والبيان، والوفود المسيَّرة حينًا إلى لندن، وأحيانًا إلى المندوب السامي البريطاني في القدس. فيما طالبت قيادة الحركة الوطنية الشعب العربي الفلسطيني بالصبر والصمت!

لم يكن هذا كله من باب المصادفة، بل بسبب الطبيعة الطبقية لقيادة الحركة الوطنية، إذ من المعروف أن كبار الملاك هم الذين احتكروا مقاعد هذه القيادة على مدى العشرينيات، وهم الذين دأبوا على لعب دور الوسيط بين الولاة والرعية في العهد العثماني، ناهيك عن أنهم يجترون الفكر الإقطاعي. فيما كان السكاكيني ممثلًا أصيلًا للبرجوازية المقطوعة الصلة بالسوق الرأسمالية العالمية، فضلًا على أن تلك البرجوازية كانت تواجه عدوًّا مزدوجًا (الاستعمار البريطاني، والصهيونية)، ناهيك عن كون تلك البرجوازية وليدة، وهذا كله حدَّد ثورية البرجوازية الفلسطينية على مدى عشرينيات القرن العشرين، وثلاثينياته.

فيما بين سنتي ١٩١٨ و١٩٢٠ أدار فلسطين حكم عسكري إنجليزي، حيث تم تعيين السكاكيني ضمن هيئة المعارف الفلسطينية، فيما تعينت عقيلته في هيئة المعارف لمدارس البنات.

في ٢٨/ ١٠/ ١٩١٩ افتتح السكاكيني «دار المعلمين»، وغدا مديرًا لها. حيث دأب على حث الطلبة على التحرر، والاعتداد بالنفس، وأسس لهم جمعية للمحاضرات والشعر، فضلًا على مجلة «الجوزاء»، ليحرروها بأنفسهم.

حين تم تعيين الصهيوني البريطاني المعروف، هربرت صموئيل، مندوبًا ساميًا على فلسطين في أول تموز/ يوليو ١٩٢٠ سارع السكاكيني إلى تقديم استقالته من عمله في «دار المعلمين»، من باب الاحتجاج. وسرعان ما لبى دعوة «الجمعية السورية الأرثوذكسية» في القاهرة، لإدارة القسم العربي لمدرسة «العبيدية». وفي العاصمة المصرية وطَّد السكاكيني علاقاته بكوكبة من المفكرين والكتَّاب المصريين، وفي القلب منهم كتَّاب أسبوعية «السياسة الأسبوعية»، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين، الذي اجتذب ليبراليين كُثُر، أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق، د. منصور

فهمي، سليم سركيس، أحمد زكي باشا (أبو العروبة)، جورج حبيقة، وطه حسين. لقد جاء انجذاب صاحبنا هنا منطقيًا، إذ إن هاجس أولئك هاجسه: الفكر والديمقراطية.

بعد سنتين عاد السكاكيني إلى مسقط رأسه من جديد (١٩٢٢)، ومن هناك واظب على إرسال مقالاته إلى صحف مصرية بعينها، وخاصة «المقتطف»، و«الهلال»، فضلًا على «السياسة الأسبوعية». إلى جانب مزاولته نشاطه السياسي في القدس، أمينًا لسر اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني، التي كانت تقود الحركة الوطنية الفلسطينية، على مدى عشرينيات القرن العشرين، والسنوات الثلاث الأولى من الثلاثينيات، منبثقة عن مؤتمر وطني عام، حرصت الحركة الوطنية الفلسطينية على عقده دوريًا مرة كل عام، باستثناء سنوات الركود الوطني (١٩٢٣-١٩٢٧)، وهي السنوات التي فقدت فيها قيادة الحركة الوطنية الاتجاه، بعد أن خاب أملها في «الحليف» البريطاني!

دأب صاحبنا، منذ عاد إلى القدس، على التردد على مقهى شعبي في «باب الخليل»، أطلق عليه «قهوة الصعاليك»، فيما سمى بيته «الكوخ». فصاحبنا مولع بسك الصفات ذات الطابع الطريف.

منذ ربيع ١٩٢٥ أقلع عن أكل اللحم، وغدا نباتيًا، وبالتالي كف عن الخروج للصيد في الغابات المحيطة بالقدس.

بمجرد مغادرة هربرت صموئيل فلسطين، صيف ١٩٢٦، عاد السكاكيني للالتحاق بإدارة المعارف، وغدا مفتشًا عامًا للغة العربية فيها، وهنا تم اختياره عضوًا في «المجمع العلمي العربي»، بدمشق.

في عز اشتداد الثورة الوطنية المسلحة في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) لم ينس السكاكيني العلم، فأسس سنة ١٩٣٨ «كلية النهضة» في القدس، بمشاركة كل من إبراهيم شحادة الخوري، ولبيب غلمية، وشكري حرامي.

لكن الخطوب كانت لصاحبنا بالمرصاد، إذ خطفت يد المنون زوجته، سلطانة، في ٣/ ١٠/ ١٩٣٩. فرثاها، وعاش مخلصًا لذكراها.

بعد نشوب الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، مجرد صدور قرار تقسيم فلسطين عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧) رشح طه حسين صاحبنا (١/ ١/ ١٩٤٨) لعضوية «المجمع اللغوي» بالقاهرة، وصادق المجمع على هذا الترشيح، ووصل السكاكيني إلى القاهرة، في ٣/ ٤/ ١٩٤٨، لكن صدمة أخرى زلزلت حياته، بفقدانه وحيده، سري، بالسكتة القلبية في ١١/ ٥/ ١٩٥٣، فلحق بابنه بعد بضعة أسابيع (١٣/ ٨/ ١٩٥٣).

قسماته

ظل السكاكيني معتدًا بنفسه طوال حياته، فهو القائل: «أنا لا ألقى دهري إلا غير مكترث، ولا أنتسب إلا إلى نفسي». وقد بادر إلى تقديم استقالته من «إذاعة القدس» الحكومية بمجرد سماعه صوت المذيع يعلن: «هنا فلسطين، أرض إسرائيل»[٣]. بعد أن كان قدم استقالته من «دار المعلمين» احتجاجًا على تعيين صموئيل مندوبًا ساميًا، على النحو الذي أشرنا إليه آنفًا. وحين ضاقت بصاحبنا السبل، لم يتردد في إعلان استعداده للعمل حجارًا[٤].

لم يحدث أن قال كلمته ومضى، فهو من ردد: «سأقول كلمتي وأقف، ومن شاء أن يصارعني فليتقدم». فيما كان وفاؤه مضرب الأمثال، إن كان لصديق صباه، داود الصيداوي، أو لابن خالته، يعقوب فرّاج، أو لأستاذه نخلة

زريق، فضلًا على وفائه لرفاقه في مصر. ناهيك عن وفائه الاستثنائي لزوجته، حتى أنه دأب على زيارة قبرها كل يوم، بل قال: «إني أخجل أني عشت بعدها»!

في الإجمال، كان السكاكيني إنسانًا، وطنيًّا، ورياضيًّا، وطالب قوة، متمثلًا قول المتنبي:

غثاثة عيشي أن تغث كرامتي وليس بغث أن تغث المآكل

إلى قوله: «كذا أنا يا دنيا، ولا عاش من يمشي على الأرض خائفًا، أو مزهوًّا».

فلسفته

لم يفت السكاكيني ما للفلسفة من أهمية؛ لذا أولاها عناية خاصة، فركز على القراءة لكلٍّ من نيتشه، وسبنسر، وشوبنهاور. على أنه تأثر بالأول أكثر من غيره من الفلاسفة؛ لذا وجدنا السكاكيني يدعو إلى التحرر، ويرى بأن الصلاة إذا لم تكن مبتكرة، صادرة عن الإحساس، فلا معنى لها. ودعا إلى فهم روح الشريعة. فيما رأى في الاتكالية دليلًا على انحطاط الشعوب. ويقول مفكرنا: «أهون على الإنسان آيات القرآن، والزبور، والتوراة، من أن يمسك نفسه عن الكذب، أو الإضرار بالناس، أو يملك نفسه، عند أقل التجارب»[٥].

لم يكن صاحبنا يسلِّم بأمر إلا بعد أن يقلِّبه في عقله، ويمحِّصه بخبرته. ولطالما أكد أنه لا يخشى جهنم، ولا يرغب في السماء[٦].

لذا لم يكن غريبًا أن يدعو السكاكيني إلى عبادة النفس، فيقبل الإنسان على نفسه، ليستكمل فضائلها، وينتقدها، فلا يرى اعوجاجًا إلا قوَّمه، أو فسادًا إلا أصلحه، فيحافظ على نقاء جسده، وصحته، وقوته، وشبابه، وجماله، فضلًا على أن ينزِّه نفسه عما يشينها.

ما أن رحلت زوجته حتى تمكَّن منه الحزن الشديد، وغاب عنه تفاؤله، وكف عن المرح، واتهم الحياة بالقسوة؛ تعطي لتأخذ، وتهب لتسترد، وتُفرح لتُحزن، فانجذب، منذئذ، أكثر فأكثر إلى فلسفة شوبنهاور المتشائمة، واتهم الناس بأنهم يعيشون «في هذه الدنيا بلا عقول»[٧]!

أما العقل، في رأيه، فهو ضد الغريزة؛ لذا تخشاه الطبيعة، ومن هنا فأكثر العقلاء لا يتزوجون، وإذا تزوجوا، فإنهم لا يُكثرون في الأولاد، بل أحيانًا لا يُنجبون!

لقد أعطت هذه الشخصية الغنية، فأجزلت في العطاء، في غير مجال.

فكـــره

كان السكاكيني «متطرفًا في آرائه ووطنيته، صعب القياد، لا يطيق أن يتحكم به أحد»، برأي المثقف السياسي الفلسطيني المعروف، جورج أنطونيوس.

لعل من المثير للدهشة أن مفكرنا لم يلُذ ببرجه العاجي، بل انغمس في السياسة حتى أذنيه، رغم أنه حرص على التأكيد «أنا لست من رجال السياسة، ولكنني عربي قبل كل شيء، ويهمني، بل من واجباتي أن أسعى في إنهاض هذه الأمة».

أغلب الظن أن صاحبنا قصد أنه ليس حزبيًّا محترفًا، بقوله: «لست من رجال السياسة». وكان معه كل الحق في عدم انتسابه لأي من الأحزاب العربية الفلسطينية، في ذلك الزمان، التي لم تكن إلا بنى فوقية، من علية القوم، منبتَّة الصلة بجماهير الشعب. وانحصرت الفروق بين هذه الأحزاب في درجة ترديها، وفي انتسابها لهذه العائلة الكبيرة، أو تلك. وقد رأى السكاكيني بأم عينه كيف «أن هذا الحزب يقاوم ذلك الحزب، لا لإنقاذ البلاد من الخطر، ولكن لينتزع هذا الحزب الوجاهة والنفوذ من ذلك الحزب. يتقاتلون على الوجاهة والنفوذ، وينسون الخطر الذي يهدد البلاد. وإذا فكرنا في إنقاذ البلاد، فليس إلا الاحتجاج»[٨].

لطالما ثار ـ بجسارة عزَّ نظيرها ـ على الظلم والفساد، فتمرد على الحكم العثماني الجائر، ليُسجن، ويصدر حكم الإعدام بحقه. وفي وقت لاحق يرفض تلبية دعوة المندوب السامي البريطاني بمناسبة رأس السنة الميلادية (١٩٣٣) بدعوى التعارف.

إن صاحبنا هو من ثار على الرهبانية اليونانية في فلسطين، قبل أن يُحدث ثورة تربوية، بمناداته بجعل المدارس أماكن تَرَبٍّ وتعلُّم، لا أماكن تربية وتعليم. وحين خطفت يد المنون شريكة حياته، سلطانة، كتب في صدر مكتبه: «لن نرضى»! وجاءت هاتان الكلمتان معبرتان عن تكوين هذا المفكر الغاضب الرافض.

لكن، ما موقف مفكرنا من الوحش الصهيوني، الذي أنشب أنيابه في الجسد الفلسطيني؟ لقد كره السكاكيني الصهيونية؛ لأنها تحاول أن تبني وجودها على أنقاض شعوب أخرى. لكن صاحبنا حرص على التفريق بين اليهودية والصهيونية، ورأى أن اليهود بحاجة إلى توراة، لكنه أبدى خوفه من أن يكون نصيب النبي الجديد فيهم نصيب أسلافه، ممن أحرقهم اليهود، وقتلوهم. لذا خاطب السكاكيني اليهود: «الأنبياء والتوراة منكم، ولكن ليست لكم، إذا كنتم تشعرون بحاجتكم إلى توراة جديدة، فيجب أن تستمدوها من غيركم»[٩].

في مواجهة المشروع الاستعماري الصهيوني، حرص صاحبنا على أن يجعل من قول ابن الرومي شعارًا للمدارس العربية الفلسطينية:

ولي وطن آليت ألا أبيعه ولا أرى غيري له الدهر مالكا

أما نظرته إلى أوروبا فاتسمت بالازدواجية: «أوروبا! أوروبا أصل البلاء... لم يكفِ الاستعمار، حتى زدتنا بوعد بلفور... ولعار عليكِ [يقصد بريطانيا] أن تكوني في سياستك خاضعة لنفوذ اليهود»[١٠].

بيد أن إدانته هذه للغرب لم تمنعه من أن يغبط الغرب على نزعته الاستقلالية، ويحزن لغرق الشرق في الاتكالية. ويُرى الأخير ينتقل من الحداثة إلى شيخوخة ثقيلة، بينما الغرب ينتقل من الحداثة إلى شباب دائم[١١]. كما يلاحظ أن الغرب يستند في فلسفة الحكم إلى الوسائط، دون المبادئ، فيما «لا يكون الرقي رقيًّا، إلا إذا كان عن مبدأ الوسائط قد تضمن الأمن والعدل، ولكن لا تجعل الأمن والعدل خلقة في النفوس». وينتهي صاحبنا إلى «أن المدينة قائمة بالوسائط، لا المبادئ، لمدنية منحطَّة». إن السكاكيني يريد أن تفد الفضائل من المبادئ والمُثُل، لا أن تُفرض بالقانون والقوة[١٢].

إنسانيته

دون ما تعارض مع الوطنية فإن السكاكيني تحلى بإنسانية مطلقة، ولطالما ردد قول الشاعر:

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل الناس فيها أقاربي

رغم أن صاحبنا نشأ في جوّ حافل بالخرافات، فإن قراءاته لكتابات د. شبلي شميِّل العلمانية دحرت الخرافات عنه، على ما يذكر السكاكيني نفسه. لذا كانت ثورته على رجال الكنيسة من الرهبان اليونانيين ثمرة لهذا التحول، خاصة بعد أن لمس مدى استبداد هؤلاء الرهبان بالطائفة. كما أعلن أنه ليس ابن دين من الأديان السماوية، أو الأرضية، أو جنسية بعينها، «بل أنا فرد من أفراد هذه الإنسانية... أرى من واجبي، بل من دواعي سروري وطربي أن أشتغل فيما يكون به الخير للناس، على اختلاف ألوانهم، وأديانهم، ولغاتهم». يستطرد صاحبنا: «إذا كانت الوطنية في حب الحياة، فأنا وطني، وأما إذا كانت في تفضيل دين على آخر، ولغة على أخرى، ومدينة على مدينة، ومصالح على مصالح، فلست وطنيًا». وامتدادًا لهذا الموقف الإنساني المطلق، سجل السكاكيني في يومياته (١٩٣٤): «لا يشقيني شيء مثل أن أرى آثار البؤس والشقاء، حتى في الحيوان الأعجم»[١٣]. كما لطالما تأذى من الظلم، وربما جاءت إنسانية السكاكيني في أعلى تجلياتها، حين طبع بطاقته الشخصية، على هذا النحو:

خليل السكاكيني إنسان إن شاء الله

المربـــي

أولى السكاكيني اهتمامه الأكبر للنشء الاحتياطي الإستراتيجي للمجتمع، ووعْد المستقبل، بعد أن كان الأوان قد فات لإعادة صياغة الكبار! فحضَّ صاحبنا الفتيان والفتيات على الجسارة، وممارسة الرياضة، وحب الوطن، والسعي وراء الثقافة: جامعًا، في آن، بين فكر كل من المتنبي، ونيتشه، وجان جاك روسو، وبستالوتزي.

لم يلم السكاكيني بالفكر التربوي فحسب، بل أضاف، وأبدع في هذا الميدان، حتى أنه بلور رؤية من شأنها تحويل المدرسة إلى مصدر متعة، وثقافة للطالب. بل اعتُبر صاحبنا، أيضًا، رائدًا في مجال الدعوة للتركيز على الطريقة أكثر من المادة، من أجل مد الطالب بطرق التفكير[١٤]. ورأى أن «احترام التلميذ، وحسن معاملته كفيلان بأن يخلقا فيه شخصًا جيدًا جدًّا، عنده عزة نفس، وكبر، ويحتقر الذل، ولا يحني رأسه أمام أحد، ويتحلى بالشجاعة والصدق، ولا يصبو إلا إلى الأفضل»[١٥]. وقطع السكاكيني بأن لا صناعة تعدل التعليم. ولعل من غير المستغرب أنه جعل القرآن في مدرسته عامًّا بين المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواء، لإيمانه بأن «المدرسة هي خير أداة للإصلاح، وخير عدة لرفع شأن البلاد»، على ما ذكر عنه المفكر الديمقراطي المصري المرموق، د.منصور فهمي[١٦]. أما السكاكيني نفسه فأكد بأن رسالته هي: «أن يكون التعليم، أولًا وطنيًا، وثانيًا صحيحًا»[١٧].

أما هدف التعليم عند صاحبنا فهو توسيع المدارك، وتقوية العقل، لا حشوه بعلوم الأولين والآخرين، فيمتلئ، ولكن يبقى صغيرًا. ذلك أن الغرض الأول من التعليم، برأي مفكرنا، هو «خلق نوع جديد من البشر، يُعملون عقلهم في كل أمر». وقد حصر السكاكيني أهداف التعليم في السعي لتعزيز الملكات الأساسية للغة، كلامًا، وقراءة، وكتابة، ليس الهدف الإثقال على التلميذ بالحفظ، بل توسيع المدارك، وإنماء الفكر. فمنهاج الأدب، مثلًا، يتضمن موضوعات تثير في نفوس التلاميذ الحماسة، وتوسع آمالهم، وتكبِّر نفوسهم، وتحببهم بالحياة، وليس مادة تحذِّر الحواس، وتسفِّل الأهواء، وتولِّد اليأس، والخمول، والزهد بالحياة[١٨]. لذا انحاز السكاكيني إلى حرية المعلِّم في بلورة مناهج تستجيب لاحتياجات المكان، والزمان، والبشر، أي «حسب الحاجة، لا حسب التقليد»[١٩].

لقد آمن صاحبنا بأن التعليم ليس في مراكمة المعلومات، بل بالإفادة منها في الحياة، «نعلِّم طلابنا التاريخ، لا ليعرفوا التاريخ، ولكن ليكونوا مؤرخين، نعلِّمهم الأدب، لا ليعرفوا أصول الأدب، ولكن ليكونوا أدباء. نعلمهم اللغة، لا ليعرفوا اللغة، ولكن لينزلوا منها منزلة أهلها. ونعلِّمهم الرياضيات لتكون أدمغتهم رياضية...»[٢٠]. لذا نرى السكاكيني يلح في ضرورة الاعتناء بالذاكرة، والفهم، والانتباه، والملاحظة، ويصر على ألا يوضع التلميذ تحت ضغوط الامتحانات، كما دأب صاحبنا على المناداة بالتعليم الذاتي. بذل جهودًا مضنية لاستحداث أساليب تعليم للغة العربية، منطلقًا من أن اللغة وسيلة، لا غاية، وأن هدف الأساليب التعليمية تقريب اللغة إلى التلاميذ، وتحبيبها إلى نفوسهم. وقد أصاب صاحبنا في تحديد أهداف تعليم اللغة العربية في أربعة أهداف: الحديث، والسماع، والقراءة، والكتابة.

يتفق مفهوم السكاكيني هنا مع آخر ما وصل إليه علم التربية في هذا الصدد؛ فالقراءة عملية عقلية، تهدف إلى التعلُّم؛ لأنها مهارة تحصيل، بها يكتسب التلميذ المعارف، ويتدرب على التحليل، والتمييز، ويلتقي بالمُثُل، والأخلاق العليا، فيتشربها. كما تتفق أساليب صاحبنا في تعليم القراءة مع أحدث الأفكار في موضوع فهم المقروء، وكيفية تطوير المهارات لدى المتعلم. وتتضمن هذه المهارات قراءة النص، وفهمه، حرفيًّا، بكل تفاصيله، وثروته اللغوية، وفكرته المركبة، وتسلسله الموضوعي، والزمني، أو السببي، ثم محاولة قراءة ما بين السطور، لاستخلاص النتائج، وتفسير المشاعر، وتحليل الشخصيات، ومن ثَم القراءة النافذة، والقراءة الإبداعية، وفيها يحاول الطالب تقييم ما قرأ، والاستفادة منه في حل مشاكل مشابهة. وشدَّد مفكرنا على ضرورة تحويل القراءة إلى قراءة هادفة، فيعرف القراء لماذا يقرأون، ويتعلمون كيف يفهمون ما يقرأون[٢١].

في مجال تعليم قواعد العربية تبنى السكاكيني الأسلوب الخلدوني؛ الذي يقتصر على الشواهد، دون القواعد، حيث نبدأ بالمثل، لننتقل إلى الاستعمال، فيقاس الكلام بعضه على بعض، بحيث تصبح الملكة سليقة، لا قاعدة. ويؤخذ بهذا الأسلوب اليوم؛ إذ تثار المشاكل، ثم يبدأ التدريب، لتثبت القاعدة في أذهان الطلبة[٢٢].

لعل خير تطبيق لأفكار هذا المربي المتمكِّن تلك الأجزاء الأربعة من «الجديد في القراءة العربية»، التي ألفها السكاكيني، فأتت مستوفية الأصول التربوية الحديثة، مراعية الطريقة الصوتية الكلية، أي من الكل إلى الأجزاء، ومن الجملة إلى الكلمة. فالمقطع ثم الحرف، بحيث يتعلم التلميذ أصوات الحروف، ويربط بين الصوت والرمز، بما يمكنه، لاحقًا، من التأليف بين رموز تكوين أصوات تحمل معاني، وصورًا ذهنية، تُنقل بأوضاع حياتية قريبة من مفهوم التلميذ، وترتبط بتجاربه الذاتية، وخبراته السابقة، والممتعة، في الغالب[٢٣].

إن تقطيع «القراءة» يسهِّل على الطالب قراءتها، وفهمها، واستخدامها، فضلًا على الكتب المدرسية التي ألفها السكاكيني، وظفت الأدب، الذي عكس تراثًا حضاريًّا، عربيًّا، وعالميًّا، قديمًا، وحديثًا، ذا قيمة جمالية، وخالدة، كما راعى صاحبنا في «القراءة» ميول، واحتياجات، وقدرات المتعلمين. فالكتاب الجيد ـ برأي السكاكيني ـ هو الذي يجد فيه الطالب فائدة ومتعة، على أن يكون في موضوعه ولغته في مستوى التلميذ. ولهذا الغرض أصدر السكاكيني كتاب «الدليل»، بهدف إرشاد المعلِّم إلى كيفية اعتماد كتاب «القراءة».

نأتي إلى وظيفة المدرسة، حيث آمن السكاكيني بالعلاقة الإيجابية بين المدرسة المتطورة، وخلْق جيل جديد، يتحلى

بالمعرفة الوطنية؛ لذا أعلت مدرسة السكاكيني منزلة العقل، دون السطوة، في حل ما استعصى من المشاكل، وتلك أسمى معاني التربية الديمقراطية.

كان صاحبنا مؤمنًا بأن المدرسة هي المركز الأهم في عملية الخلق الجديد وفي عملية التحول المنشودة لمجتمعه، وبلده.

إلى ذلك طالب السكاكيني بتعليم الأطفال، دون السن القانونية، بإرسالهم إلى المدرسة.

أما المعلِّم، فقد اعترف السكاكيني بدوره الطليعي في العملية التربوية. حيث إن واجب المعلِّم إدخال الفرح إلى قلب التلميذ، وإحسان معاملته، وتحريره. كما رأى صاحبنا في المعلِّم الوسيلة لتحقيق أهداف التعليم. وأكد أن وظيفة المعلِّم تعزيز الطالب، لا إذلاله، «إذ ليس أكره إليَّ من أن تُساس المدارس بالعنف». وإذا ظهر عيب في الطالب، فإنه عيب المدرسة. وحذر صاحبنا بأن ليس ضمن وظائف المدرس أن يخرِّج للأمة «دراويش مطأطئي الرؤوس».

اللغوي والأديب

لقد تعددت المذاهب في تحديد مفهوم اللغة[٢٤]؛ فأصحاب المذهب الطبيعي رأوا أن اللغة كائن حي، فيما قال أصحاب المذهب النفسي بأنها ظاهرة نفسية، واعتبر أصحاب المذهب الاجتماعي اللغة ظاهرة اجتماعية، على أن السكاكيني أخذ بالمذاهب الثلاثة مجتمعة، كما ربط ـ محقًا ـ بين اللغة والقومية، لذلك وجدنا مفكرنا الكبير جزعًا لما أصاب العربية من ركاكة، وضعف.

على أنه رفض استخدام لغة البداوة؛ فاللغة ـ برأيه ـ يجب أن تتطور في أساليبها، أيضًا، وليس في ألفاظها فحسب. كما كان من المنطقي أن ينفر السكاكيني من ضروب البديع؛ لأنها لم تعد قادرة على التعبير عن العصر الحديث.

اللافت أن السكاكيني دعا إلى إلغاء القواعد، والاكتفاء ـ في المراحل التعليمية الأولى ـ بما يلي:

١ ـ أن يتبع أسلوب الجداول (التوابع/ النداء/ الاستغاثة/ والعدد).

٢ ـ أن نأخذ من القواعد ما نحتاج إليه في القراءة والخطابة.

٣ ـ أن نتبع تعدد القاعدة، لا توحيدها.

إلى ذلك طالب صاحبنا بأن تصبح العربية لغة التعليم في جميع المواد، وبأن تكون لغة الكتب المدرسية لغة صحيحة، وأن تتحلى المدرسة بالروح العربية.

نبقى في الميدان اللغوي، حيث اهتم السكاكيني بدراسة الأصوات، وخصائصها في اللغة العربية. ولاحظ أن أصوات حروفها واضحة صريحة، بعكس الكثير من الحروف اللاتينية، وأعاد صاحبنا الحروف الحلقية ـ التي تنفرد بها العربية ـ إلى البيئة الصحراوية، حيث أتاح هواؤها النقي حلقًا قويًا، قادرًا على إخراج الأصوات. واكتشف السكاكيني العلاقة بين تلك الحروف الحلقية وبين أمزجة العرب، من حدة، وصراحة، ووضوح. بيد أن حلوق العرب ضعفت في عصر الانحطاط، والميل المتزايد للترف، فاستثقلت بعض الأصوات القوية؛ فليَّنوا القاف، وتحولت عندهم إلى همزة، وحذفوا العين من بعض كلماتهم («السا»، بدلًا من «هذه الساعة»)، واستبدلوا بالحركات القصيرة حركات ممدودة، بسبب من رخاوتهم («قُم»، حل محلها «أوم»)[٢٥].

لفت صاحبنا الانتباه إلى أن صوت الضمة والفتحة أصلح للغناء من صوت الخفض الثقيل، لسهولتهما؛ لذا يميل لفظ المناطق الباردة إلى الضم والخفض؛ لأن أهل هذه المناطق يتجنبون فتح أفواههم، تجنبًا للبرد، بعكس سكان المناطق الحارة الميالين لممارسة الزفير؛ ولهذا كثر الفتح في لغة العرب[٢٦]. كما لاحظ السكاكيني أن هذه «لا تخلو من نظرة عاطفية...نتيجة اعتزازه بلغة قومه».

غني عن القول أن السكاكيني أخذ بالنظرية القائلة إن بدء اللغات كانت محاكاة الإنسان للطبيعة؛ في أصوات رياحها، ومياهها، ووحوشها؛ حيث تراعي الحركة في أصوات، مثل: «فحَّت الأفعى»، و«شقَّ الثوب»، و«مصَّ الشراب»، و«حام الطائر»، و«سال الماء»، و«هبَّ النائم»، و«شبَّت النار». كما أشار صاحبنا إلى مدى قوة «إن» للتأكيد.

حين عرض السكاكيني التطور التاريخي للحروف الهجائية، أكد أن الخط قطع ـ قبل أن يصل إلى صورته الحالية ـ أربعة أدوات: التصوير الذاتي (بتصوير الحمامة، مثلًا)، والتصوير الرمزي (المحبة رمزًا للجماعة)، والدور المقطعي (حاء مفتوحة للدلالة على الحمامة)، وأخيرًا الدور الهجائي.

أديبًا ومؤرخًا

امتلك صاحبنا ناصية النثر بشتى فنونه؛ من المقال، والرسالة، والخطبة، إلى اليوميات. وكان لنزوله ـ مع أمثاله من كبار الأدباء العرب ـ إلى ميدان المقالة الأثر الكبير في إحياء الأدب، وتطوره.

أما الرسائل، فلعل أشهرها تلك التي وجهها السكاكيني إلى شريكة حياته، سلطانة، ثم إلى ولده، سرى. وقد اتسمت المجموعة الأولى بالرومانسية، فيما تضمنت رسائله إلى وحيده خلاصة خبرة الوالد بالحياة والبشر.

حين احتدت المعركة بين أنصار القديم وأنصار الجديد في الأدب، كتب صاحبنا في أسبوعية «السياسة الأسبوعية» القاهرية، يتهم أنصار القديم بالتكرار، والإسراف في المترادفات، على غير حاجة إليها، وعزا السكاكيني ذلك إلى ندرة الأفكار لدى أنصار القديم.

بسهولة، يمكن إدخال السكاكيني في عداد المؤرخين، إذ يكفيه أنه ضمَّن «كذا أنا يا دنيا» يومياته، وتأملاته في الشؤون العامة والخاصة على حدّ سواء. وتعود الدقة في يوميات السكاكيني هذه إلى حرصه على تسجيلها، أولًا بأول. كما أن صاحبنا قدم بهذه اليوميات بانوراما للأوضاع في فلسطين، غداة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، في كتابه «فلسطين بعد الحرب العظمى»، الذي ضم تلك المقالات التي نشرها في مصر، فيما بين سنتي ١٩١٨ و١٩٢٠، حول أوضاع فلسطين.

وبعد، فرغم تعدد مواهب ومهارات السكاكيني، فإن المربي كان هو الأساس. وأغلب الظن أن صاحبنا جاء إلى هذا العالم سابقًا لأوانه.

هوامش الفصل الأول:

(١) خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا/ يوميات السكاكيني**، القدس، ١٩٥٥، ص٢٦.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٦٦.

(٣) **المصدر نفسه**، ص١٤٥.

(٤) خليل السكاكيني، **المجموعة الكاملة**، القدس، ١٩٦٢، ص٩١.

(٥) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٠.

(٦) **المصدر نفسه**، ص١٥١.

(٧) **المصدر نفسه**، ص١٧٢.

(٨) **المصدر نفسه**، ص٣٢٦.

(٩) **المصدر نفسه**، ص٦٥-٦٦.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص٢٨٤.

(١١) خليل ا سكاكيني، **ما تيسر**، الجزء الأول، المطبعة العصرية، القدس، ١٩٤٣، ص٦٧.

(١٢) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٤، ٢٣١-٢٣٢.

(١٣) السكاكيني، ما تيسر، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٣.

- السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٨٩، ٢٤٧، ٢٦٤.

(١٤) يوسف حداد، **خليل السكاكيني/ حياته، ومواقفه، وآثاره**، بيروت، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين، ١٩٨١، ص٥١.

(١٥) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٧١.

(١٦) مجموعة من الكتاب، **ذكرى السكاكيني**، القدس، ١٩٥٥، ص١٢٤.

(١٧) يعقوب العودات، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، عمان، ١٩٧٦، ص١٧٩.

(١٨) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٥١، ٧٢، ٨٤.

(١٩) **الشورى** (القاهرة)، ٤/ ١١/ ١٩٢٦.

أوردها: حداد، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١٣.

(٢٠) السكاكيني، ما تيسر، **مصدر سبق ذكره**، ص٧-٩.

(٢١) خليل السكاكيني، **الدليل الثاني**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٣١، ص١٩-٣٣.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص٢٣١.

(٢٣) **المنتدى** (القدس)، ١/ ٣/ ١٩٤٤.

أوردها: حداد، **مصدر سبق ذكره**. ص٢٢٤.

(٢٤) عدا المراجع المشار إليها في هذا القسم، فقد استعنت، أساسًا، هنا بالدراسة القيمة للأستاذ عصام الشنطي، **خليل السكاكيني اللغوي**، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٧.

- نواف عبد حسن (إعداد)، **خليل السكاكيني بين الوفاء والذكرى الطيبة**، ١٩٩١. (انظر: أحمد حامد، خليل السكاكيني لغويًا وأديبًا، ص٥٧-٦٤)

(٢٥) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٨-٦٩.

(٢٦) السكاكيني، المجموعة الكاملة، الجزء الثاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤.